

معادن ملح أوليل واستغلاله في العصر الوسيط

د. محمد بن عميرة *

موقع أوليل:

تعتبر أوليل من أشهر الملاحات الواقعة بصحراء صنهاجة، أي الجزء الغربي من الصحراء الكبرى في العصر الوسيط، ويحدد ابن حوقل (ق ٤ هـ / ١٠ م) موقعها على مسافة شهر واحد من مدينة أودغست، وشهر ونصف شهر من مدينة سجلماسة^(١). ويفيد أبو عبيد البكري (ق ٥ هـ / ١١ م) أن أوليل التي يُحمل منها الملح، إلى ما جاورها، ليست جزيرة وإنما تقع قرب جزيرة تسمى "أيوني" يُمكن الوصول إليها عن طريق الأقدام، عند الجَزْر (جَزْر مياه المحيط الأطلسي)، ولا يمكن ذلك، عند المدّ، وهي مرسى من المراسي، بينها وبين نول (نول لمطة) مسافة شهرين على ساحل البحر^(٢). ثقب بالنسبة للادريسي (٦ هـ / ١٢ م)، فإن أوليل هي جزيرة، ومنها تَحْمِل المراكب الملح، إلى مصب نهر النيل (نهر السنغال) الذي يبعد عنها مقدار مجرى (أي يوم من الإبحار)^(٣)؛ وهي حسب ابن سعيد المغربي (ق ٧ هـ / ١٣ م) مدينة في الطرف الجنوبي من "جزيرة الملح" الواقعة أمام مصب النيل (نهر السنغال)، وهو حيث الطول: عشر درجات وعشرون دقيقة (١٠ ° ٢٠) وحيث العرض عشر درجات (في الواقع ١٦ °)^(٤) وكان سكان موريطانيا (Les maures) يطلقون تسمية أوليل على المنطقة الساحلية الممتدة من منطقة أمدرور (Amadrour)^(٥) جنوبا نحو الشمال، على مسافة سبعين كيلومترا، إلى تاهركات (Taharkat)، وفيها تقع ملاحات ترارزة (Trarza) ومنذ حوالي ١٨١٠م تعد تسمية أوليل مستعملة، وقد مكنت هذه المعلومات حسب H. Garden، من التعرف على ملاحات (ملاح) أوليل، مكان ملاحات ترارزة، تقريبا، غير أنه لم يبق أي

* قسم التاريخ - جامعة الجزائر

^١ صورة الأرض، ط. بريل ١٩٦٧، ص ١٩٢٠

^٢ المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، ط. بغداد، ص ١٧١-١٧٢

^٣ القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق وتقديم وتعليق إسماعيل العربي، الجزائر ١٩٨٣، ص ٣١-٣٢

^٤ كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر ١٩٨٢، ص ٩٠؛ أنظر Ch. De la Roncière: La découverte de l'Afrique au m. age, T. l'Immoire de l'institut royal de géographie d'Egipte, T. V. MDCCC XXIV (1924), P. 349

^٥ وهي أمدبير على خريطة المصلحة الجغرافية لوزارة المستعمرات (الفرنسية)، تقع حوالي ١٠٠ كلم شمال شرق القديس لويس

H. Gaden: Les salines d'Aouli I, Revue du monde musulman, vol. 12, no 11, Novembre 1910, P. 436, note 3.

مبرر للشك في هذا الأمر، منذ أن قامت بعثة Gruvel سنة ١٩٠٨، بالاستكشاف العلمي لموريطانيا الغربية، في المنطقة المحصورة بين القديس لويس (St Louis) وبين الرأس الأبيض (Cap blanc)^(٦). وقد كتب نتائج هذا الاستكشافات التي يعتبرها Gaden واضحة جدا وكاملة، كل من A.Gruvel و Chudeau.R في Atravers la occidental vol .I.ChapV'Mauritani. رأى Mauny .R، على حساب Monteuil V، مترجم الجزء الخاص بالصحراء من كتاب أبي عبيد البكري، الذي جعلها تتطابق مع أرقين (Arguin)، وهذا خطأ، حسب رأي Mauny^(٧)، مع العلم أن Monteuil يعتقد أن جزيرة أيوني قد تكون هي جزيرة إيولي (Auili) الصغيرة، الواقعة بين تيدرة، وبين الساحل، لأنه بالإمكان الوصول إليها دائما عن طريق معبر (Gué) تتردد عليه السلاحف^(٨).

وفي رأي Gaden أن جزيرة أيوني، أي جزيرة المد، بالنسبة للبكري، صارت جزيرة أوليل في جغرافية الأدريسي، ويحتمل أن يكون هذا المصطلح الذي كرره جغرافيون آخرون، قد ساهم كثيرا في مطابقة هذه الجزيرة بجزيرة أرقين (Arguin)؛ وتؤكد اليوم (١٩١٠) بعد الاكتشافات العلمية للساحل (الموريطاني) أن هذا الخطأ، لعدم وجود معدن واحد للملح، في جزيرة أرقين، ولا يوجد الملح أيضا في السبخ المجاورة، حتى على السطح، ولا في رأس القديسة أن (Ste Anne) على الخريطة القديمة، وشبه جزيرة أيوني، لا تكون جزيرة، حسب المصادر العربية، إلا أثناء المد، وقد اخفت، ولا شك، وسطرمال هذا الساحل الذي لم يتوقف عن المد في البحر^(٩).

ويستحيل، حسب Mauny R، معرفة أوليل غير أن موقعها، لا بد وأنه موجود هناك، بين تويدمي (Twidermi)، شمالا، وسكومات (Sokmat)، جنوبا، على وجه التقدير، وليس بعيدا أن يكون الأمر متعلقا، بصفة خاصة بنتيررت (Nterert) وهي أهم ملاحات ترارزة (Trarza).

ويتفق Cuoq J. مع Mauny R، في أن البحث عن أوليل يكون بين ملاحات ترارزة (Trarza)، على الساحل، وأن الملاحات لا تقع في جزيرة، غير أن بعض فيضانات نهر السنغال (النيل في المصادر العربية) تتجاوز كثيرا تلك الملاحات كما

⁶ Ibid, P.436.

^٧ - أنظر: Tableau géographique de l'ouest africain au moyen age Mémoires de l'institut français de l'Afrique, No6, Dakar 1961, P.326

⁸ Al-Bakri: Routier de l'Afrique Blanche et Noire, dans Bulletin de l'institut français de l'Afrique Noire, T.XXX, serie B, n01, 1, 1968P, P106, note8

⁹ Les Salines d'Aouilil P.438

تتجاوز نواكشوط (Nouakchott)^(١٠) أيضا، أي أن تلك الفيضانات تغزلها عن البر، وتجعل منها جزيرة، وبعد جفاف مياه الفيضانات تتصل أوليل بالبر ثانية، وهكذا... ويلاحظ Godino V.M أن البحر في هذه المنطقة، وبالضبط عند بياش (Biach)، من ضوآحي ميريك (Mirik) من خط عرض ١٦٠ ٤٠، جنوبا، إلى مرسي (Marsa) على خط عرض ١٨ ٢٠، شمالا، قد أودع، قديما، وما زال يودع، بمساعدة السنوات الممطرة، طبقات ملحية، في أحواض، رسمتها الكثبان المفروشة بنبات الغرييون والطرفاء بان بعض السبـخات تقد ملحا، في شكل لوحات يسهل حملها على ظهر الجمل^(١١).

تعريف أوليل:

يعرف ابن حوقل أوليل على أنها " معدن للملح ببلاد المغرب"^(١٢)، وينسب كل من البكري وصاحب كتاب الاستبصار الملح الموجود بها، على شاطئ البحر (المحيط) إلى قبيلة جدالة^(١٣) البربرية، من بلاد المغرب طبعاً، لكن الإدريسي يعتبرها من بلاد السودان^(١٤).

ويضيف ابن سعيد المغربي الذي يظهر أنه نقل معلوماته عن الإدريسي، أو عن المصادر التي نقل عنها هذا الأخير، رواية مفادها: "أنه ليس في بلاد السودان ملاحه غيرها"^(١٥).

وفي هذا السياق يذهب بعض الباحثين المحدثين، من أمثال بحاز إبراهيم بكير الذي ذكر في حديثه عن أهمية الملح في التجارة مع بلاد السودان "أنه" لم يكن..... بضاعة مغربية بحتة، وإنما كان التجار التيهريون وغيرهم يستبدلون بعض بضائعهم بالملح، في أوليل أو توتوك، ويأخذونه إلى غانة أو كوكو....."^(١٦) أي أن بحاز يعتبر، مثل الإدريسي وابن سعيد أوليل جزء من بلاد السودان، وهذا خطأ، ما دام أن هذا المعدن يقع تحت سيطرة قبيلة جدالة الصنهاجية التي كانت تقطن تلك المناطق الجنوبية الغربية من الصحراء الكبرى، منذ القديم.

¹⁰ Recueil des sources arabe concernant l'Afrique occidentale, du VIII au XI e siècle (bilad al-sudan), traduction et notes par J.M. Cuooq, Paris 1975, P. 127, notes. 2

¹¹ L'économie de l'empire portugais aux XV e et XVI e siecles, Paris 1969, P. 102

¹² صورة الأرض، ص ١٩٢

¹³ أنظر المغرب، ص ١٧١؛ مؤلف مجهول في E.Fagnan: L'Afrique septentrionale au XII e notre description extraite du Kibab el- Isticar et traduite par E.Eagnan, Constantine

¹⁴ القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، ص ٣١

¹⁵ كتاب الجغرافيا، ص ٩٠

¹⁶ الدولة الرستمية: ١٦٠ هـ - ٢٩٦ ٧٧٧-٧٧٧-٩٠٩ م، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط. ١٩٨٥، ص ٢٢٥

وينفرد ابن سعيد بالقول: إن أوليل مدينة في الطرف الجنوبي من جزيرة الملح، على البحر المحيط^(١٧) غير أن Gaden H. يلاحظ، مع ذلك، أن المصادر العربية لم تتحدث العربية لم تتحدث عن وجود قصر أو قرية بمنطقة أوليل، وهو يعود، حسب رأيه، إلى أن استغلال السباخ لا يكون إلا في فصل الجفاف،— بعد تبخر الماء المتجمع في وسطها، بفعل أعاصير فصل الأمطار أو فيضانات النهر، وفي فصل الجفاف، ينزل الرذحل إلى الجنوب، بحثا عن مراعي أفضل، ومياه أوفر، حيث كانت الاقدالة (Les Igdala) يأتيون الملاحات، ويكلفون عبيدهم بالعمل فيها، وتتصب الخيم والأخصاص —، قرب السباخ على شبه جزيرة أيوني^(١٨).

استغلال ملح أوليل:

ويتساءل Device. عما إذا كان تجار أودغست هم الذين كانوا يقومون باستخراج الملح من أوليل ونقله أم أنهم كانوا يشترونه من قوافل أخرى، وعما إذا كانوا يقومون بذلك لحساب الملك فقط؟^(١٩) إلا أن Gaden H. بناء على وصف البكري لطرق استغلال معدن تانتال (تغازا) والتي ما زالت تمارس إلى اليوم، وقوله "ومعدن للملح آخر، عند بني جدالة، بموضع يسمى أوليل، على شاطئ البحر" يستنتج أن البكري يقصد بتعبيره أن "استخراج ألواح الملح من معدن أوليل" كان يتم بنفس الطريقة التي يستخرج بها ملح تانتال، ويبرر استنتاجه بأن الرّحل الذين كانوا وما زالوا إلى حد الآن وحدهم الممونين لإفريقيا الغربية، بالملح، لم ينقلوا، أبدا، غير أن ألواحها إلى السوق، لأنها الشكل الوحيد الذي يتحمل النقل لمسافات بعيدة في القوافل والتي يستطيع التجار السودانيون إيصالها إلى أسواق المنطقة الممطرة، جنوبا دون نقص معتبر^(٢٠).

ويقىس Mauny. R ما كان يحدث بالأمس على ما يحدث اليوم: حيث تستغل ألواح الملح في تويدرمي (Tuidemi) ونثيرر (Nterert) ومُجران (Moudjranne)، بطرق لم تتغير كثيرا، منذ قرون ولاشك، وتقع الملاحتان الأولى والثانية في منطقة الدراعة (La draa)، أي في منطقة الكتبان وتقع الثالثة في منطقة أفتوت (Aftout) المنخفضة التي تغمرها فيضانات نهر السنغال وتحول كثرة الماء دون التشبع التام والنهائي بالملح، ويصعب بالتالي تكون ألواح منه^(٢١).

ويلاحظ Mauny أن ما يستغل اليوم ممن سبخة تويدرمي، التي يبلغ طولها ٧٠٠ م وعرضها ٥٠٠ م، هو جزءها المركزي وحده، حيث يستخرج الملح من دائرة قديرها ٢٠٠ م، ويصف نوعية ملح منطقتي الدراعة وأفتوت بارداة، بسبب هشاشة

^{١٧} كتاب الجغرافيا أنظر Gh.de la Roncière:op.cit.T.1,P49....

¹⁸ Les Salines d'Aouilil,P.443

¹⁹ la question d'Audagust,P.114

²⁰ Les Salines d'Aouilil,P.443

²¹ Tableau géographique,P325

ألواح، ويُعثر عليه ابتداءً من عمق ٥٠ سم ويبلغ سمك المقطع المستغل منه ٠,٨ سم ويتم تعريض ألواح، بعد استخراجها، للشمس بضع ساعات، كي يصير صلبة ثم تنقل، بعد ذلك^(٢٢).

وأهم ملاحظة من هذه المجموعة، إطلاقاً، الوحيدة التي تقدم عملياً ألواح جيدة، بأعداد كبيرة هي ملاحه ننتيررت، على بعد ٥ كلم جنوب غرب ملاحه تويدرنى، ويقدر قطر المساحة القابلة للاستغلال فيها ٦٠٠٠م، يوجد فيها الملح الجوهري (Sel gemme) في عدة طبقات مختلفة السمك ٠,١٠ م و ٠,٢٥ م وهي مفصولة بطبقات طينية^(٢٣).

تصدير ملح أوليل:

وقد استنتج Devisse مما كتبه ابن حوقل عن وصول الملح إلى غانة عن طريق مدينة أودغست "من ناحية الإسلام" ومن أن أوليل هي "معدن الملح ببلاد المغرب"^(٢٤) وما عرضه في مكان آخر من أوليل تعتبر حداً لبلاد الإسلام، أنه ليس هنالك ما يمنع من التفكير من أن أغلب الملح المبيع لملوك السودان قد وصل من الملاحه التي تبعد بمسافة شهر عن أودغست أي أوليل، مما لا يقصى إمكانية وجود ملاحات أخرى، أقل أهمية، والتي لم تلفت انتباه التجار القادمين من الشمال آنذاك^(٢٥). وإذا حصل وأن استخرجت ألواح ملح من سبخ الجنوب الصحراوي، فإنها لم تترك أي أثر يدل على ذلك^(٢٦).

ويرى Devisse أن الوصف غر الدقيق (من قبل الجغرافيين العرب) يسمح بالتفكير في أن أوليل لم تكن، في القرن العاشر الميلادي، خارج الاتصالات العادية، بين الشمال والجنوب^(٢٧) وهذا ينسجم، ببيعة الحال، مع ما ورد في نص ابن حوقل.

ويلاحظ Devisse أن البكري، عندما تحدث عن معدن أوليل (في القرن الحادي عشر الميلادي)، لم يشر، ولو مرة واحدة، إلى أنه كان يمون أودغست بالملح، بل يقول: ومن هناك تتحملة الرفاق... إلى ما جاوره^(٢٨) (أي أوليل) مما يدل، في نظر Devisse، على أن تجارة أوليل صارت إقليمية؛ وليست دولية" مثلما كانت قبل من الزمن (أي في عهد ابن حوقل)؛ ويلاحظ Devisse ثانية أن البكري سجل المعلومات في

²² Ibid

²³ Ibid

²⁴ أنظر صورة الأرض، ص ٩٢؛ مع ملاحظة أن Devisse. ترجم هذه العبارة كالتالي هي "معدن الملح الرئيسي للمغرب، أنظر

La question d'Audaguste, Tegdaoust I, recherches sur Aoudaghost Paris 1970, P114

²⁵ Ibid

²⁶ Ibid, P332

²⁷ Ibid, P114

²⁸ أنظر نص البكري في المغرب، ص ١٧١

إشارته (Notice) الثانية المؤرخة سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٧-١٠٦٨ م؛ أما في إشارته الأولى: فقد قدم معلومات أخرى مفادها أن أهم معدن هو الذي يزد بتانتال (أي تغازا) ومن هناك يصدر الملح إلى سجماسة وغانة وسائر بلاد السودان^(٢٩).

مع العلم أن البكري أظهر استغرابه من هذا المعدن، دون أن يذكر أنه الأهم، كما يقول Devisse الذي يلاحظ أن هذا الجغرافي لم يقدم آنذاك معلومات في شأن مدينة أودغست التي سبق وأن أرثى تخريبها من قبل المرابطين^(٣٠).

ويستنبط Devisse من هذه المعطيات أن مدينة أودغست، سواء خربت أو لم تخرب، لم يعد لها، حوالي ١٠٦٧-١٠٦٨ م (٤٦٠ هـ)، احتكار تجارة الملح، وكذلك الأمر بالنسبة لأوليل المصدر الرئيسي للملح الذي اشترته غانة، إذ تمت، في نظره، أقلمة تجارة الملح، ويحتمل أن تكون أوليل قد صارت تصدر ملحها للسنغال في حين أصبحت تانتال (تغازا) تصدر ملحها نحو غانة والنيجر^(٣١).

ويرجح مؤلفنا أن يكون فتح هذا المعدن اتلأخير لسببين، يتمثلان في: الصعوبات التي وجدها تسويق ملح أوليل أولا في نمو العلاقات التجارية الصحراوية، ثانيا والصعوبات التي وجدها التسويق واضحة، في نظره: فأوليل واقعة في بلد جدالة، وهم يجاورون البحر، ليس بينهم وبينه أحد، وقد لعب هؤلاء دورا أساسيا، خلال المراحل الأولى من تنظيم المجتمع المرابطي لكنهم انشقوا عنه، قبل ١٠٥٨ م وانسحبوا في اتجاه البحر، وبعد صدام عنيف مع لمتونة، وقعت القطيعة بين الطرفين، ولم يوجه المرابطون، بعد ذلك سلاحهم ضد جدالة، ولا شك أن هذه الاضطرابات قد أربكت المنطقة الغربية لموريطانيا، منذ ١٠٥٠ على الأقل، وجعلت سير القوافل انطلاقا من أوليل عميلة صعبة جدا^(٣٢).

والمأمل في مثل هذا الكلام يبدو له أنه يفتقد إلى نوع من الانسجام، بين حديثه عن أقلمة تجارة الملح واختصاص أوليل في الاتجار مع السنغال واختصاص "تانتال" في الاتجار مع غانة والنيجر وبين الارتباك الذي يتحدث عنه هنا، بعد ١٠٥٠ م، والذي يقول عنه بأنه جعل عملية سير القوافل صعبة جدا، اللهم إلا إذا تصورنا أن جدالة استغلت نهائيا عن المرابطين، في الجهة الغربية من موريطانيا الحالية واحتكرت التصرف في ملح أوليل وصارت توجهه نحو نهر السنغال، واحتكر المرابطون ملح تانتال، وصاروا يسوقونه في كل من غانة والنيجر وأصبح كل طرف يمنع، أو على الأقل يخلق صعوبات لقوافل الطرف الآخر، عند مرورها بالمناطق الواقعة تحت سيطرته، وهذا ما لم تشر إليه المصادر على الإطلاق، والمعروف أن

²⁹ op.cit.PP.114-115

³⁰ Ibid,P115

³¹ Devisse,op.cit.P115

³² Ibid

الصراعات بين مختلف القوى السياسية في دار الإسلام عموماً، لم يكن لها أي تأثير على سير الحركة التجارية لأن البلاد الإسلامية كانت دائماً مفتوحة على بعضها البعض تجارياً وثقافياً.

نقل ملح أوليل:

أورد الادريسي في القرن السادس الهجري (١٢م) أن المراكب تحمل من "جزيرة" أوليل الملح إلى مصب نهر النيل (السنغال) الذي يبعد عنها بمقدار مجرى (يوم) ثم تواصل السير عبره إلى مدن "سلى وتكرور وبريسى وغانة وسائر بلاد ونقارة وكوغة وجميع بلاد السودان"^(٣٣) ويتوقف H. Gaden عند كلام الادريسي هذا، محاولاً الربط بينه وبين كلام البكري، فيستنتج أن الملح كان يتصدر، حسب مقصده، إما في القوافل (مثلما ذكر البكري) ويعلق على هذه الفقرة بالذات قائلاً "إن البكري يقول في الواقع: إن القوافل تذهب من هناك بالملح إلى جميع الجهات المجاورة"^(٣٤)؛ وإما عن طريق الوسائل البحرية والنهرية كما ذكر الادريسي وهذه الأخيرة تستعمل بطبيعة الحال، لتزويد الوقين الكبيرين للسنغال الأوسط، تكرور وسلى (Silla)^(٣٥).

كما يتحدث المؤلف الأخير عن مبادلات كانت تتم، حسب رأيه، في شبه جزيرة أيوني تسلم فيها الأقمشة والذرة (Mil) والدقيق في مقابل الملح والعنبر الرمادي الذي كان يجمع آنذاك من الساحل ثم تتكون للقوافل ندو أو دغست وغانة وتبحر المراكب التي يحتمل أن تكون من جذعيات الصيادين السنغاليين (Guolofs) نحو مصب النهر لتصعد في اتجاهه صنغانة وتكرور، مع الإشارة إلى أن gaden يوثق هذه المعلومات التي لا يوجد لها أثر في أي النصوص العربية المستخدمة في هذا البحث، كما أن البضائع التي ذكر أنها تبدل بالملح والعنبر، عادة ما يكون بعضها مثل الأقمشة من شمال الصحراء، والبعض الآخر مثل الذرة والدقيق، من جنوبها، أي من بلاد السودان، فهذا يعني بذلك أن قوافل الشمال كانت تلتقي بقوافل الجنوب هناك؟

غير أن Mauny يستبعد تماماً تمكن المراكب أي الجذعيات^(٣٦) (Pirogue) المحتملة بالملح من النزول على طول الساحل الاطلنطي واجتياز الموج العالي، عند مصب نهر السنغال، ويقترح أن يفسر نص الادريسي على أن يشير إلى المسافة التي

^{٣٣} القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، ص ٣١-٣٢

^{٣٤} أنظر

Les salines d'Aouilil, Revue du monde musulman, vol. 12, no 11, ; Novembre 1910, P437, note 4

^{٣٥} يطلق سكان موريطانيا (Les Maures) تسمية تكرور جمع تكرير (Tekarir) على السكان المستقرين في فوتة (Fouta) السنغالية، ويطلق عليهم الولوف (Ouolofs) السنغاليون اسم توكولو (Toukoulor) التي اخذت منها تسمية توكولور Foukoulor الفرنسية؛ وهم يطلقون على أنفسهم تسمية فوتتكوبي Foutan-Kobé. أو هالبوتارن Halpoutar'en (أنظر H. Gaden: op. cit. P. 437)

^{٣٦} Ibid, P437

نقطعها المراكب في بعض السنوات الممطرة جدال في شبكات خلجان نهر السنغال أو شعابه المتجهة نحو أفتوت (Aftout) بحيث أنها تصل أحيانا إلى أقل من مسافة نصف يوم من نثيررت (Nterret)، وفي هذا ربح معتبر، للوقت، بالنسبة للنقل البري^(٣٧) وهو ما دفع الإدريسي إلى التفكير في أنه كان بإمكان تلك المراكب القدوم إلى أوليل لشحن الملح، والصحيح في نظر Mauny أن ألواح ذلك الملح كانت تُحمل، في غير السنوات الممطرة جدا، مع الملح المسحوق المكس في قرب من ملاحه أوليل إلى نهر السنغال على ظهر القوافل وعندئذ يشحن في مراكب كبيرة تصعد نهر السنغال إلى مدينة كاييس (Kays-Médine) حيث المحطة النهائية للملاحه، وكان ينقل من نقطة من نقاط التوقف، على الجمال، والثيران الحماله، والحمير، نحو الأسواق المحلية الصغيرة^(٣٨). ويلاحظ Mauny عدم وجود أية معلومة خاصة بالطريقة التي كان يسوق بها ملح أوليل في العصر الوسيط، غيلار أن الطرق، في رأيه، لا تكون قد اختلفت كثيرا عن اليوم، واليوم فإن الملح يظهر في شكل ألواح مختلفة الأبعاد والأوزان، حسب الطبقات التي يستخرج منها: فيشكل لوحان، يزن الواحد منهما من ٨٥ كغ إلى ٩٠ كغ، حمل جمل^(٣٩) وثلاثة يزن الواحد منها من ٤٢ إلى ٤٥ كغ ثور حامل Porteur واثنان يزن الواحد منهما من ٣٠ إلى ٣٥ كغ، حمل حمار^(٤٠) مع الحرص على أن لا يتجاوز وزن ما يحمله الجمل ١٨٠ كغ وما يحمله الثور الحمال ١٤٠ كغ وما يحمله الحمار ٧٠ كغ^(٤١).

أقدمية استغلال ملح أوليل:

لا تبين المصادر متى بدأت عملية استغلال ملاحه أو معدن أوليل، ولكن إذا أخذ بعين الاعتبار ما ذكره Mauny من أن الاتصالات عبر الصحراء، كانت موجودة قبل وصول العرب إلى إفريقيا الشمالية (بلاد المغرب) في القرنين السابع والثامن الميلاديين (١ و ٢ هـ) بكثير، فالعربات (Les chars) القرمانتية وغيرها كانت في الألفية الأولى قبل الميلاد، تربط بين ضفتي الصحراء، بين المغرب الأقصى وفران من جهة، وبين منعطف نهر النيجر، من جهة أخرى، ويبقى من المنطقي التفكير بأن التجارة كانت أحد الأهداف الرئيسية لتلك الاتصالات، غير أن هذه الأخيرة، في حدود

^{٣٧} الجذعيات، هي زوارق تصنع من جذوع الأشجار (المنهل، ص ٧٧٧)

³⁸ Tableau géographique, P327

³⁹ Ibid, PP.357-358

⁴⁰ Ibid, P357

^{٤١} Ibid, P326 لاحظ Godinho في تجربة حديثة أن وزن حمولة الجمل من الملح يتراوح من ١٢٠ إلى ١٦٠ كغ وأن وزن ٢٠٠ كغ تكفي لإرهاقه^٥ P.119 (L'économie de l'empire portugais, P.119)

معارفنا الحالية، كما يقول، لا يظهر أنها عرفت أهمية حقيقية إلا بعد وصول العرب إلى المنطقة^(٤٢).

ويرى نفس المؤلف أن نوعا من التجارة تكون قد توصلت، على نطاق ضيق، بين بلاد السودان وبين السوس (الأقصى) بواسطة القبائل البربرية الكبيرة المنتشرة غرب الصحراء، من الأطلس إلى أدرار موريطانيا، ثم يتساءل عما إذا لم يكن من الطبيعي أن يتبادل البربر الليبيون المسيطرون على الصحراء، وبالتالي على الملاحات، مع السودان المسيطرون على بلاد الذهب... منتوجاتهم، منذ وقت قديم جدا، وهذا ما يفسر، في نظرة، أن العرب بمجرد وصولهم إلى بلاد السوس أرسلوا حملة عسكرية إلى بلاد السودان سنة ٧٣٤ م (١١٦ هـ) واستولى قائدها حبيب بن أبي عبيدة على كمية معتبرة من الذهب، وسيصنع العرب من الطريق للمتوني القديم محور للاتصالات التي تربط بين قطبي عالم لمتونة، السوس، وبين أدرار طاقت (Tagant)^(٤٣)

ويشير Mauny هنا إلى ما أورده ابن عبد الحكم أن عامل الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، علي بن الله بن الحباب الذي تولى مهامه سنة ١١٦ هـ - ٧٣٤ م، استعمل ابنه اسماعيل على السوس وأخرج حبيبا بن أبي عبيدة الفهري إلى "السوس" وأرض السودان فظفر بهم ظفرا لم يُر مثله وأصاب ما شاء من ذهب... ثم غزا أيضا البحر ثم انصرف^(٤٤)

ويعلق كلود كاهن (C.Cahen) عما أصاب حبيب بن ذهب بقوله: إن غنيمة غزوة ٧٣٤ م تدل على أن الذهب كان مستغلا، وأن هناك، إذا، حدث على ذلك ولكن في إطار جهوي محض، ويرى أنه من المحتمل عدم وجود أهمية كبرى يمكن تعليقها على هذه الجملة "المذهلة" التي انطلقت من السوس إلى بلاد "السودان" وهو تعبير غامض، وهدفها غير معروف بالضبط، وهي لا تختلف، بدون شك عن كل الحملات الآتية قادها العرب، في كل الاتجاهات، خارج فتوحاتهم الخاصة، وقد عثر على الذهب حقيقة، مما سمح باكتشاف وجوده، إن لم يكن يعلم ذلك مسبقا، غير أنه لم ينتج عن هذه العملية تنظيم تجاري آنذاك^(٤٥)

⁴² Tableau géographique, P.398

⁴³ Ibid, PP300 et 399

⁴⁴ كتاب فتوح إفريقية والأندلس، نشره وترجمه إلى الفرنسية ألبير قاطو A. Gateau ص ١٢٢

⁴⁵ L'or du soudan avant les Almoravdes : Mythe ou réalité ,le sol, la parole et l'écrit, melange en hommage a Raymond Mauny, histoire d'outre mer 1961-PP.540-41

ويلاحظ إبراهيم فخّار أن ابن عبد الحكم لم يبين أن المقصود بأرض السودان هي غانة، علما بأنها كانت موجودة في أيامه، قبل ٨٧٠ م، لأن الفلكي الفزاري الذي ذكر قبل القرن الثامن عدة بلاد إفريقية، ذكر منها إقليم غانة بلاد التبر^(٤٦)

وإذا تحدثنا عن حاجة بلاد المغرب وغيرها من البلاد الإسلامية إلى ذهب بلاد السودان أو تبرها لا بد من الحديث عن حاجة هذه الأخيرة إلى ملح بلاد المغرب: ذلك أنها تفتقده تماما، لأن الطبيعة، كما لاحظ شارل دو لارونسيار (Ch.La Roncière) وزعت الملح بوفرة، شمال الخط الذي يربط واحة سيوة شرقا بالرأس الأبيض غربا؛ أما جنوبه فقد أودعت الذهب^(٤٧) وباستثناء السواحل البحرية فقد اقتصر سكان بلاد السودان والغابات على استخراج ملحهم من رماد النباتات، في حين أثبتت دراسات أنثروبولوجية مختلفة أن حاجة حسم الإنسان، وبالأخص الإنسان الأسود للملح المعدني ملحّة، وحيوية لا يعوضها استهلاك الملح المستخرج من النباتات، لأنه يعرف أكثر من الإنسان الأبيض، فيحتاج إلى ذلك حتى يعوض جسمه ما أفرزه من العرق، وعليه أيضا إعطاء الملح لحيواناته لتعويض غياب النباتات المالحة^(٤٨).

فإذا سلمنا بوجود اتصالات قديمة بين البربر والسودان، ووجود حركة تجارية، ولو ضعيفة بينهم، وعرفنا أن الصحراء، موطن أولئك البربر، لم تكن فيها أية منتجات صناعية أو زراعية، يبقى الملح وحده هوة السلعة التي بإمكان البربر تصديرها إلى بلاد السودان للحصول على مقابلها من الذهب، وهو ما يفسر وجود الكميات التي عثر عليها العرب المسلمون في بلاد السوس.

ويوافق هذا الاستنتاج ما ذهب إليه ROSENBERGER B. من أنه على الرغم من أن الجمل وحيد السنم قد سهل الاتصالات، عبر الصحراء، إلا أن الاقتصاد المتوسطي لم ينشطها بحيث لم يكن هناك الذهب يصل المدن والمرافئ^(٤٩).

وقد شجع ما عثر عليه العرب، عكس ما ذهب إليه Mauny^(٥٠)، عللة تنظيم طريق تجاري عبر الصحراء إلى بلاد السودان، ذلك أن أبا عبيد البكري في ووصفه للكريك "من تامدلت إلى مدينة أودغست": يشير إلى أن بئر الجمالين الواقعة على مرحلة

^{٤٦} تجارة القوافل في العصر الوسيط ودور التجار الليبيين في حضارة الصحراء الكبرى، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، ص ٦٣

^{٤٧} op.cit.P88

^{٤٨} R.Capot-Rey: L'Afrique blanche française, T.2, Le sahara français, Presses universitaires de France; Paris 1953, P.214

^{٤٩} L'histoire économique du Maghreb, Handbuch der orientalistik, Erste Abteilung VI, Band, 6 Abschnitt, Teil I, Leiden-Koln, E.J.Brill 1977, P.207

^{٥٠} بالنسبة لـ Mauny R. فإن ما عثر عليه العرب ممن ذهب، أثناء الحملة التي قادها حبيب بن أبي عبيدة لم ينتج عنه تنظيم طريق تجاري آنذاك (Tableau géographique, P.541)

من تامدلت و"عمقها أربع قامات من أنباط عبد الرحمن بن حبيب"^(٥١) كما يشير إلى "بئر (أخرى) أنبسطها عبد الرحمن بن حبيب واحتقرها في حجر أدعج صلب طولها أربع قامات"^(٥٢) على بعد أربع عشرة مرحلة من البئر الأولى، وعلى ثلاثة مراحل أخرى بئر ثلاثة" يقال لها ويطنونان، وهي كبيرة لا تتزف، مأوها زعاق... وهي من عمل عبد الرحمن بن حبيب أيضا، طولها ثلاث قامات..."^(٥٣).

ولا يذكر البكري ما من شأنه أن يساعد على التعرف على هوية عبد الرحمن بن حبيب هذا، ولا على تاريخ حفرة تلك الآبار، غير أن المصادر عن ابن الحبيب بن عبيدة يُسمى عبد الرحمن، خاض إلى جانبه، وإلى جانب كلثوم بن عياض معركة بقدورة أو نقدورة، ضد الخوارج الصفرية، على وادي سبوء، سنة ١٢٣ أو ١٢٤ هـ/٧٤٠-٧٤١ م، وبعد قتل والده وهزيمة أصحابه لجأ عبد الرحمن إلى الأندلس، ومكث هناك إلى سنة ١٢٦ هـ/٧٤٤ م، وعندئذ عبر البحر إلى تونس وقام بتأسيس الإمارة الفهرية^(٥٤) فهذا الابن، لاشك وأنه نفسه عبد الرحمن بن حبيب الذي حفر الآبار التي ذكرها البكري على الطريق الذي يعبر الصحراء إلى بلاد السودان، وإذا ثبتت صحة هذا الاستنتاج، فإن تاريخ حفر تلك الآبار لا بد أن يكون محصورا فيما بين سنة ١١٦ هـ/٧٣٤ م، تاريخ الحملة التي قام بها والده إلى بلاد السودان وبين ١٢٣-١٢٤ هـ/٧٤٠-٧٤١ م، تاريخ لجوئه إلى الأندلس بعد هزيمة بقدورة، وإذا ما تأكدت صحة هذه المعلومات يمكن أن يستنتج منها، ألا الدليل المادي الذي يؤكد قيام حملة حبيب بن أبي عبيدة على بلاد السودان، والذي يكون قد كلف قبلها، أو أثناءها، أو بعدها بقليل، ابنه عبد الرحمن بمهمة حفر تلك الآبار، وثانيا أن طريق تامدلت-أودغست، إذا كانت حتى ذلك الوقت، يحتاج إلى تنظيم أكثر، كي تعبره القوافل/من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال، وقد حدث هذا التنظيم، إذا، منذ النصف الأول من القرن الثاني الهجري، أي النصف الأول من القرن الثامن الميلادي.

وفي اعتقاد Mauny R فإن وصول التجار العرب إلى أودغست وغانة وغيرهما، ابتداء من القرن الثامن (الميلادي) ربما كان منشطا قويا لزيادة إنتاج الذهب الذي كان، قبل ذلك، خاصا بالسوق الداخلية، ولا تعبر الصحراء منه سوى نسبة قليلة، في مقابل منتوجات متوسطية^(٥٥) وهو ما يتفق تماما مع ما ذهب إليه Lombard M، من أن استقرار السيادة الإسلامية، على القبائل البربرية، بعد حملات عقبة بن نافع، في منطقة

^{٥١} المغرب، ص ١٥٦

^{٥٢} نفس المصدر، ص ١٥٧

^{٥٣} نفسه

^{٥٤} عن هذا الموضوع أنظر محمد بن عميرة، دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، الجزائر ١٩٨٤، ص ٧٤ فما بعدها من عدة صفحات.

^{٥٥} Tableau géographique, P.300

طرابلس سنة ٦٦٤ م (٤٦ هـ)، ويقصد بها تلك الحملة التي وصل فيها عقبة إلى كوار^(٥٦)، وفي المغرب الأقصى سنة ٦٨١ م (٦٣ هـ)، ويقصد بها الحملة التي وصل فيها نفس القائد، في ولايته الثانية على بلاد المغرب، إلى السوس الأقصى^(٥٧)، مكنت من السيطرة على المحطات النهائية، في طرف القوافل الصحراوية وأن اعتناق الإسلام وانتشار التجارة الإسلامية، نحو الجنوب، كان عليهما ربط العلاقات الصحراوية، منذ القرن التاسع الميلادي (٣ هـ)، بالمجال الاقتصادي المتوسطي والتمكين من وصول ذهب السودان عن طريق الصحراء، نحو بلاد المغرب، ومن هناك نحو الغرب والشرق الإسلاميين، وأبعد من ذلك^(٥٨).

وفي المقابل، كانت القوافل تحمل إلى بلاد السودان، إضافة إلى الملح، الصمغ، أي القطران النباتي، وحلي الزجاج الأزرق (النظم)، وخواتم النحاس والقمح والتمر والزبيب، وثياب مصبغة بالحمراء والزرقة والصوف والخرز، أي المرجان والكتب والعطور وبالأخص القرنفل والمصكي وغير ذلك^(٥٩).

ويلاحظ Lewecky T أن أول من وصف طريق: تاهرت، سجلماسة - أودغست غانة هو اليعقوبي (حوالي ٨٩١-٨٩٢)، و٢٧٨ هـ، وكانت سجلماسة، الواقعة في ما يسمى اليوم بلاد تافلات، تشكل نقطة انطلاق أغلب القوافل المسافرة، عبر الصحراء، إلى السودان الغربي، وقد أسس الصفريون بها دولة مستقلة، حوالي ٧٥٧-٧٥٨ م، استمر حتى منتصف القرن العاشر (٤ هـ)^(٦٠).

ومما يستخلصه هذا المؤلف، في نهاية بحثه: أن معطيات المصادر العربية التي في حوزته وبالأخص الاباضية منها، تبين أن أوائل التجار المسلمين، الذين عرفوا تواجدهم بالسودان الغربي، قدموا من تاهرت، وكانت غالبيتهم، على الأقل، على المذهب الأباضي، والأكيد حسب رأيه، أنهم كانوا هم التجار الأوائل الذين وصلوا تلك المنطقة، منذ أن فتح العرب بلاد المغرب، إذ يتوقع أن يكون تجار مسلمون (ويقصد بهم

^{٥٦} عن هذه الحملة أنظر ابن عبد الحكم؛ فتوح إفريقية والأندلس، ص ٦٠ و ٦٢

^{٥٧} عنها أنظر نفس المصدر، ص ٧٠

⁵⁸ Les métaux dans l'ancien monde du VE Siècle, Paris-La Haye 1974, PP.207-208

^{٥٩} عن موضوع الصادرات المغربية إلى بلاد السودان، أنظر E.F. gautier Soudan, dans l'histoire, annales d'histoire économique et sociale, T.VII, No32-31 Mars 1935, P118. البكري: المصدر السابق، ص ١٥٨، وهنا وهناك؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص ٣٤، وهنا وهناك، الشيخ الأمير عوض الله: تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وأثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر ميلادي، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد العلوم والدراسات العربية، بغداد ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، ص ٨٥ فما بعدها.

⁶⁰ L'état nord-africain de Taret et ses relation avec le soudan occidental a la fin du VIII E et au IX E siècle, cahiers africains, vol.II, 1965, P.527

اباضيين) قدموا من مدينة سجلماية الصفرية، ومدينتي زيز ودرعة، أو تجار بربر، من مدينة ترقلة، عاصمة السوس الأقصى وسبقوا الاباضيين الذين ظهروا في أسواق غانة وكوكو، ومدن سودانية أخرى سنة ٧٨٠ م^(٦١) (١٦٤-١٦٥هـ). وقد أشاد Devisse J. بما توصل إليه Lewicki من نتائج تبين أن الرستميين أخذوا يهتمون بإقامة علاقات مع كوكو، منذ ٧٨٨ م، مبينا أنه كان، على الذين يرغبون في السفر إلي هذه المدينة، مروراً بتادمكة، أن يصلوا إلى الطريق الذي يمر عبر بسكرة إلى وارجلان وفي نفس الوقت كانت إمارة سجلماسة التي أسست حوالي ٧٥٧-٧٥٨ م (١٤٠هـ)، تحاوا على ما يبدو له، أن تجعل العلاقات الجنوبية أكثر انتظاماً، وقد انتقلت سلطة المدينة الجديدة، حوالي ٧٧٠ م (١٥٤هـ) إلى أسرة بني مدرار التي احتفظت بالسلطة فيها مدة قرنين تقريباً، وبعد قرن آخر، كما يضيف Devisse، فإن طريقاً معروفاً لكنه غير منظم، كما ينبغي، ربط سجلماسة ببلاد السودان، في فترة سجلت، حسب رأيه، أكبر نشاط تجاري بين أوليل والنيجر، عن طريق أودغست^(٦٢).

ويستنبط Devisse مما يسميه الوصف، غير الدقيق لمسالك الصحراء، أن أوليل، معدن الملح، لم تكن في القرن العاشر (٤هـ) خارج الاتصالات العادية، بين الشمال والجنوب^(٦٣) ويبدو له أن المرابطين الذين تمكن مؤسس دولتهم، عبد الله بن ياسين، من الاستيلاء على سجلماسة سنة ٤٤٦ هـ/١٠٥٣-١٠٥٤ م، وعلى أودغست بعدها، استطاعوا السيطرة على هاتين النقطتين خلال عامين، ولا يظهر، حسب رأيه، أن التزامن بين العمليتين، بالنسبة لكثير من المؤرخين، من باب الصدفة، بل يدخل ذلك في إطار خطة مرسومة، هدفها سيطرة صنهاجة الجنوب على الطريق التجاري الغربي وطرده الزناتيين منه^(٦٤).

أما تدخل أبي بكر بن عمر للقضاء على تمرد قبيلة جدالة سنة ٤٦٣ هـ - ١٠٧١-١٠٧٢ م، فقد مكن المرابطين، حسب Lagardère V من السيطرة على قطبي انطلاق الملح، أوليل وتانتال (تغازا) لأنه لم يكن في استطاعة أمراء لمتونة أن يتركوا المبادلات التجارية، التي كانوا يعولون عليها لتمويل إدارتهم، تتهاى أي أن سبب قضاء أبي بكر بن عمر على تمرد جدالة هو إعادة أحد أقطاب تجارة الملح، هو أوليل، إلى منطقة النفوذ المرابطي^(٦٥).

ولأن ابن حوقل، كما يضيف نفس المؤلف، أوضح أن علاقات ملك أودغست بملك غانة كانت مؤسسة على الضرورة لاحتفاظ أحدهما بالملح القادم من الشمال والذي

⁶¹ Lewiski op.cit,P335T3

⁶² La question d'Awdagust, Tegdaoust I, recherches sur Aoughost, PP 136-137

⁶³ Ibid, P114

⁶⁴ orientalistich Ibid ,P132 L'histoire économique :B.Rosenberger du Maghreb, Hanbuch de Erst ,Abeilang,,VI,Band Albehnt,teil,Leiden-Koln,EJ.Brill1977,P212

⁶⁵ Les Almoravides jusqu'au règne de yusuf b.Tasfin.ed L'Harmattan,Paris1989,P86

ينقص الآخر، مثل بقية بلاد السودان، واحتفاظ الثاني بالذهب الذي كان نقله إلى بلاد المغرب يحقق فوائد كبيرة^(٦٦) كان على المرابطون أن يستولوا، بعد أودغست وأوليل، على غانة كي يضمنوا استمرار التزود بحاجتهم من الذهب، ويضعوا حدا لتبعيتهم إلى غانة^(٦٧) وقد سيطر المثلثون، بعد قيام دولتهم على أسواق الذهب والملح، في الساحل السوداني، وعلى شبكة طرق الصحراء الصنهاجية (الغربية)، وصار الذهب يتدفق مباشرة، نحو المغرب الأقصى والأندلس والملح يشحن، بطبيعة الحال، إلى بلاد السودان.

تحول طرق تجارة الملح "إلى الشرق من الطرق الأولى:

وفي رأي Lagardère فإن المصادر المدروسة كلها، تؤكد أن النشاط الاقتصادي، على المحاور الصحراوية الكبرى، لم يكن أبداً، أكثر رواجاً من فترة (الغزو) المرابطي الذي أعطى تلك المحاور وحدة استغلال كبرى، وهذا (الغزو)، عكس ما تردد في أسطورة راسخة بقوة، لم يخرب التجاري. ويؤيد نفس المؤلف Devisse. فيما يعتقد، من أن الخلافات الداخلية للمجتمع المرابطي الأول^(٦٨) تكون قد ساهمت في تحويل الطرق التجارية نحو المشرق^(٦٩).

مع العلم أن Devisse ينتهي إلى القول: بأن الشروط مهياً لزوال التجارة بين أوليل، من جهة، وبين أودغست وغانة، من جهة أخرى، في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي (٥هـ)، لصالح تانتال، وبالأخص، منذ تاريخ تخريب أودغست سنة ١٠٦٧ م،، تقريبا: فالطرق الصحراوية في نظره، لم تحول قبل تلك السنة، شرق الطرق الأقدم، باتجاه تانتال وبعدها، لم ترد أية إشارة في شأن وجود تجارة هامة بين أوليل وأودغست وغانة باستثناء التكرار المحض لكلام ابن حوقل^(٧٠)

^{٦٦} Lagardère: op cit. P86؛ مضمون نص ابن حوقل المشار إليه هو: "وملك أودغست هذا يخالط ملك غانة، وغانة من أيسر ما على وجه الأرض من ملوكها، بما لديه من الأموال المدخرة من التبر... وحاجتهم إلى ملوك أودغست ماسة، من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام، فإنه لا قوام لهم إلا به... ط(صورة الأرض، ص ١٠١).

^{٦٧} يعتقد Lagardère أن السبب الاقتصادي، لم يكن وحده، وراء الاستيلاء على غانة، بل تضاف إليه الصراعات القبلية والاعتبارات الدينية (المذهبية)، بين صنهاجة السنية وبين زناتة الأباضية

(les Almoravides, P.87.sqq)

^{٦٨} عن هذه الخلافات أنظر محمد بن عميرة تعليقات حول آراء J. Devisse الخاصة بسكان أودغست في القرون ٣-٤-٥ هـ- ٩-١٠-١١ م، حولية المؤرخ، يصدرها اتحاد المؤرخين الجزائريين، العدد ٦ جويلية ٢٠٠٥، ص ٥٧ فما بعدها من عدة صفحات.

⁶⁹ L'histoire: B. Rosenberger; les métaux dans l'ancien monde, P.234: M. Lombard économique, P212

⁷⁰ Les Almoravides, P86

كميات الملح المصدرة من أوليل إلى بلاد السودان:

يعترف Devisse أنه ليست لديه فكرة عن عدد القوافل التي كانت تجلب سنويا الملح إلى أودغست، غير أنه يعتقد أن كل شيء يبعث على التفكير بأنها لا تصل سوى مرة واحدة، في العام الواحدة، ويرجح أن تكون أعدادها كبيرة، وبالأخص عندما يكون وصولها من الصحراء، وليس من أوليل فقط^(٧١) وهو ما يختلف مع ما سجله Capot-Rey عن القوافل الكبرى المسماة، حديثا الأزلاي، ومعناها بالسودانية تجمع الجمال. تنتقل مرة في العام، في الفترتين القصيرتين اللتين تفصلان موسم الحرارة الشديدة، وموسم البرد والعواصف الرملية القوية، أي فصلي الربيع والخريف، من منطقة الساحل السوداني إلى الملاحات^(٧٢) ولا يعرف على أي أساس بنى Godinho رأيه القائل: إنه منذ القرن العاشر الميلادي، على أكثر تقدير، أخذت القوافل القادمة من أودغست تجتاز الطاقنت Le Tagant للوصول إلى أوليل بمنطقة طرارزة كي تحمل الملح على أسواق السودان^(٧٣)، ومنذ النصف الأول من القرن الثاني عشر، وربما قبل ذلك، كان السودان، حسب نفس المؤلف، يستغلون ملاحات تغازا وكان وصول الأزلاي سنويا، محملة بالملح، إلى غانة ومدن الإمبراطورية السراكولية الأخرى^(٧٤) وفي مكان آخر يناقض نفسه قائلا: "إن المسلمين في المغرب والملثمين (لنلاحظ عملية التفرقة) كانوا يتعاطون التجارة وحدهم، على ما يبدو، إلى القرن الثاني عشر، ومنذ نهايته أخذ السودان يسافرون عبر الصحراء لممارسة جنوب غرب المغرب الأقصى^(٧٥)، أي المنطقة التي تقع فيها أوليل.

وقد يكون هذا الرأي الأخير أقرب إلى الصواب لأن المصادر العربية لا تتحدث إطلاق عن أي نشاط تجاري للسودان في الصحراء، فيما قبل نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، وابن بطوطة هو أول من تحدث من أصحاب عن وصول السودان في القرن الرابع عشر الميلادي، إلى تغازا لحمل ملحها^(٧٦) ومن ثمة، لا يستبعد أن تكون تلك العملية، إذا، قد بدأت خلال القرن الثالث عشر.

وقد سجل Godinho ما أورده ابن خلدون من أن القوافل التي كانت تتوجه من مالي إلى تكدا والقاهرة تتكون من ١٢٠٠٠ جمل وأن الأزلاي التي كانت تتردد على معادن ملح كوآر، في أقادس (Agadés) لم يكن عددها يقل عن عشرين ألف (٢٠,٠٠٠)

71 La question d'Awdaguste, P. 116

72 L'Afrique blanche Pris 1939, T. 2, P. 215

73 L'économie de L'empire portugaise, Paris 1969, P. 108

74 Ibid, P. 105

75 Ibid, P. 118

٧٦ أنظر رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة الناظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المكتبة، ص ٤٤١

بعير، ومن هذه المعطيات يستنتج أن عدد الجمال في العصر الوسيط، لم يكن بدون شك، أقل من ذلك وقدرة حمولة قافلة كهذه، بعد إسقاط الحيوانات المحملة بقرب الماء وأكياس الأمتعة والمؤن لا يقل عما يقارب الألف طن، بكل تأكيد، وبالتالي فإنه على الرغم، من نقص المعلومات عن قوافل تغازا وإيجيل فمن المحتمل أن بلاد السودان كانت تتلقى نفس القدرة من هذه المعادن الغربية، ومن أوليل، بل أكثر من ذلك^(٧٧)

أسعار الملح في بلدان السودان:

وفي محاولته التعرف على الأسعار التي كان الملح يباع بها ويلاحظ Mauny R. أن دراستها بإفريقيا الغربية، في العصر الوسيط، محفوفة بالصعاب، لأن قيمتها بالمتقال والدينار، وهو تعبير متكافئ، تقريبا، في أذهان أصحابه، ثم يتساءل نفس المؤلف عن نوعية هذا الدينار؟ أهو دينار القرآن، كما يقول أو دينار الموحديين والمرينيين ذو ٤,٧٢٩ غ، أو ٤,٢٥ غ؟ وهو ما تدعونا دائرة المعارف الإسلامية (T.I.P.1002) إلى الأخذ به، أو هو الدينار المرابطي ذو ٣,٨٦٤ غ إلى ٣,٩٦٠ غ ودينانير أخرى تتحدث عنها المصادر^(٧٨)

مع العلم أن ابن حوقل لم يقل، كما نقل عنه J. Devisse خطأ، "إن الملح يساوي في غانة، ص ٢٠٠ إلى ٣٠٠ دينار"^(٧٩) بل يقول "وربما بلغ حمل الملح في دواخل بلد السودان وأقصاه ما بين مائتين وثلثمائة دينار"^(٨٠) وينقل محمد زنيبر هذه الترجمة الخاطئة أيضا وينسب ما تتضمنه من معلومات إلى ابن حوقل^(٨١) وهذا غير صحيح؛ وانطلاقا من تقدير وزن حمل الملح ما بين ١٢٥ و ١٥٠ كغ، ومتوسط وزن الدينار بـ ٣,٨٠ غ من الذهب قام Devisse بعملية حسابية انتهى فيها إلى تحديد تكلفة حمل الملح، بمبلغ من ذهب يتراوح ما بين ٧٦٠ و ١١٤٠ غ^(٨٢).

ونفس الملاحظة يمكن تقديمها لـ Mauny R. الذي ترجم أو نقل ترجمة خاطئة لعبارة البكري القائلة "وبلاد الغزوين يبذل الملح فيها بالذهب"^(٨٣) بأن الملح يباع في بلاد الغزوين بعيدا في الجنوب، وزنه بوزن الذهب^(٨٤)، أي أن قيمة وزنين متماثلين من الملح والذهب واحدة، وراح يعلق على نص البكري بقوله: إن البكري يبالغ، بدون شك، وكل

⁷⁷ L'économie de L'empire portugais, P119

⁷⁸ Tableau géographique, P422

^{٧٩} أنظر. La question d'Audaguste, P.112.

^{٨٠} صورة الأرض، ص ١٠١

^{٨١} أنظر: تجارة القوافل في المغرب، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م، ص ١٧٩

⁸² op.cit.PP.112-113

^{٨٣} أنظر. المغرب، ص ١٧٤

⁸⁴ op.cit.P.302

ما نحفظ به، أن قيمة الملح كانت مرتفعة جدا^(٨٥) غير أن المتمعن في معنى "يبدل الملح فيها بالذهب" يرى أنه ليس شرطا أن يكون معناه "وزنا بمثله، كما فهم Mauny ومع التسليم بوجود نوع من الغموض في هذا التعبير، إلا أننا نرجح أن يكون معناه: يبدل الملح فيها بنسبة معينة أو معتبرة من الذهب.

وقد انساق بعض الباحثين وراء فكرة Mauny وبالغوا فيها، ومن هؤلاء الشيخ الأمين عوض الله الذي يعتبر "الملح" من أهم السلع بالنسبة للسودانيين، ولا تقل عن أهمية الذهب بالنسبة للمغاربة، ولذلك لم يبالوا في مبادلته بالذهب، وزنا بوزن^(٨٦). والسؤال الذي يمكن طرحه على هذا المؤلف، هو: لو كان الملح يباع كما يقول، لماذا يحمل التجار إلى جانبه بضائع أخرى كالنحاس والودع والأقمشة وغيرها والتي تحدث عنها هو نفسه في إطار السلع المغربية التي تصدر إلى بلاد السودان^(٨٧) والتي تباع كلها تقريبا بأقل من وزنها ذهباً بكثير وتشكل أحمالا كثيرة من كل قافلة تجارية، خاصة وأن الملح كان مطلوباً بكثرة في بلاد السودان وبيعه كان مضموناً؟

خلاصة القول :

فإن معدن ملح أوليل يقع على بعد شهر من مدينة أودغست وشهر ونصف شهر من مدينة سجماسة، قرب جزيرة أيوني، أو أنها هي نفسها جزيرة على بعد مجرى من نهر السنغال (جنوبا) وبينها وبين نول لمطة مسافة شهرين على ساحل البحر، وقد اختفت تسمية أوليل منذ حوالي ١٨١٠ ربما يكون الأمر متعلقاً بننتير (Nteret) أهم ملاحات ترارزة على الساحل الموريطاني.

وهي معدن للملح في أرض قبيلة جدالة من بلاد المغرب، وربما قامت عليه مدينة، وكان ملحها يستغل في شكل ألواح تنقلها القوافل وربما السفن، جنوباً نحو أودغست ثم غانة أو نحو السنغال، منذ القديم قبل وصول العرب المسلمين إلى منطقة في القرن الثامن (٢ هـ) بكثير، ولكن على نطاق ضيق، وبعد هذا الوصول نشطت التجارة المغربية السودانية خاصة عبر محور سجماسة أودغست وكان ملح أوليل أحد بضائعها الأساسية، في مقابل الذهب والرقيق من الجهة الأخرى.

وقد أدرك المرابطون أهمية تلك التجارة في تموين إدارتهم فسارعوا إلى الاستيلاء على قطبيها (سجماسة أو أودغست) وقد يرجع سبب ما حدث من صراع بين قائدهم أبي بكر بن عمر وبين قبيلة جدالة، التي كانت أوليل تقع في أرضها، إلى التنافس في السيطرة على تجارة ملحها.

⁸⁵ Ibid

^{٨٦} تجارة القوافل بين المغرب والسودان اغربي وأثارها حتى القرن السادس عشر الميلادي، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد ١٤٠٤ هـ - ١٤٨٤، ص ٨٤

^{٨٧} نفس المرجع، ص ٨٥.

كما يدخل استيلاؤهم على غانة في إطار هيمنتهم على أسواق الملح والذهب وراحوا يسيطرون على الساحل السوداني وعلى شبكة طرق صحراء صنهاجة وازدهرت التجارة في عهدهم بطريقة لم يسبق لها مثيل غير أن طرقها، على ما يبدو، تحولت إلى النواحي الشرقية، منذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي (٥هـ) بعد تخريب المرابطين لأودغست، على حساب معدن ملح أوليل الذي انتقل دوره إلى معدن ملح تانتال (تغازا) الواقع إلى الشرق منه.

ولا يعرف ما إذا كانت القوافل تشحن الملح مرة واحدة أو مرتين في العام الواحد، والمعروف أن أصحاب تملك القوافل كانوا، حتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، من غير السودان لكن بعد تلك الفترة نشط هؤلاء بدورهم في تجارة القوافل التي كانت الواحدة منها تضم حوالي عشرين ألف جمل، لا تقل قدرة حمولتها عما يقارب الألف طن من الملح، إضافة إلى أكياس الماء والأمتعة.

ومن الصعوبة بمكان التعرف على الأسعار التي كان الملح يباع بها في إفريقية وكل ما توصلنا إليه، في هذا الموضوع. هو قول ابن حوقل "ربما بلغ حمل الملح في دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتين وثلاثمائة دينار"، وقول البكري "وبلاد الغزو يُبدل فيها بالذهب".